الباب الأول

فى التعريف بشيخه الذى أخذ عنه هذا الشأن، وشهادة من عاصره من أهل زمنه من العلماء الأعيان، إنه قطب الزمان والحامل فى وقته لواء أهل العيان

وهو الشيخ الإمام حجّة الصوفية علَم المهتدين، زين العارفين، أستاذ الأكابر، والمنفرد فى زمانه بالمعارف السنية والمفاخر، العالم بالله، والدالّ على الله، زمزم الأسرار، ومعدن الأنوار، والقطب الغوث الجامع: تقىّ الدين أبو الحسن علىّ بن عبدالله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن حاتم بن قصىّ بن يوسف بن يوشع بن ورد بن بطال بن أحمد بن محمد بن عيسى بن محمد بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه.

عرف بالشاذلى.

منشؤه بالمغرب الأقصى.

ومبدأ ظهوره بشاذلة: بلدة على القرب من تونس، وإليها نسب.

له السياحات الكثيرة، والمنازلات الجليلة، والعلوم الغزيرة، لم يدخل فى طريق الله حتى كان يعدّ للمناظرة فى العلوم الظاهرة، ذا علوم جمّة.

ذكره الشيخ صفى الدين بن أبى المنصور رضى الله عنه فى كتابه، وأثنى عليه الثناء الكبير.

وذكره الشيخ قطب الدين القسطلانى رضى الله عنه فى جملة من لقيه من المشايخ، وأثنى عليه.

وذكره الشيخ أبو عبد الله بن النعمان رضى الله عنه، وشهد له بالقطبانية.

وذكره الشيخ عبد الغفار بن نوح رضى الله عنه فى كتابه الوصيد، وأثنى عليه.

لم يختلف فى قطبانيته ذو قلب مستنير، ولا عارف بصير، جاء فى هذه الطريق بالعجب العجاب، وشرع من علم الحقيقة الأطناب[1]، ووسّع للسالكين الرحاب، حتى لقد سمعت الشيخ الإمام مفتى الإسلام تقىّ الدين محمد بن على القشيرى رحمه الله يقول: ما رأيت أعرف بالله من الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه.

وأخبرنى الشيخ العارف مكين الدين الأسمر رضى الله عنه قال:

---

(١) الأطناب: جمع طنب وطنب هو حبل الخباء والسرادق ونحوهما، وما يشدّ به البيت من الحبال بين الأرض والطراتق.

حضرت بالمنصورة فى خيمة فيها الشيخ الإمام مفتى الأنام عزّ الدين بن عبد السلام، والشيخ مجد الدين بن تقى الدين على بن وهب القشيرى المدرس، والشيخ محيى الدين بن سراقة، والشيخ مجد الدين الأخميمى، والشيخ أبو الحسن الشاذلى، رضى الله عنهم: ورسالة القشيرى تقرأ عليهم، وهم يتكلمون ، والشيخ أبو الحسن صامت، إلى أن فرغ كلامهم فقالوا:

يا سيدى نريد أن نسمع منك.

فقال: أنتم سادات الوقت وكبراؤه، وقد تكلمتم.

فقالوا: لابدّ أن نسمع منك.

قال: فسكت الشيخ ساعة، ثم تكلم بالأسرار العجيبة والعلوم الجليلة.

فقام الشيخ عز الدين وخرج من صدر الخيمة وفارق موضعه وقال:

اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله(٢).

وأخبرنى الشيخ أبو عبد الله بن الحاج قال: أخبرنى الشيخ أبو زكرياء يحيى البلنسى قال: صحبت الشيخ أبا الحسن الشاذلى رضى الله عنه ثم سافرت إلى الأندلس، فقال لى الشيخ أبو الحسن عند وداعى إياه: إذا وصلت إلى الأندلس فاجتمع بالشيخ أبى العباس بن مكنون فإن أبا العباس بن مكنون اطلع على الوجود، وعرف حيث هو، ولم يطلع الناس على أبى العباس فيعلمون حيث هو. قال: فلما جئت إلى الأندلس جئت إلى الشيخ أبى العباس بن مكنون فحين وقع بصره علىّ قال لى ولم يعرفنى قبل: جئت يا يحيى، جئت يا يحيى، الحمد لله على اجتماعك بقطب الزمان. يا يحيى، الذى أخبرك به الشيخ أبو الحسن لا تخبر به أحدًا.

أخبرنى رشيد الدين بن الرايس قال: تخاصمت أنا وبعض أصحاب المشايخ فأتيت إلى الشيخ أبى الحسن فذكرت مقاولتنا له فقال الشيخ: كنت تقول له: أنا ربّانى القطب، ومن ربّاه القطب ربّته أربعون بدلاً(٣).

وأخبرنى والدى رحمه الله قال: دخلت على الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه فسمعته يقول: والله لقد تسألونى عن المسألة لا يكون عندى لها جواب فأرى الجواب مسطرًا فى الدواة والحصير والحائط.

وأخبرنى بعض أصحابنا قال: قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى يومًا:

والله إنه لينزل على المدد فأرى سريانه فى الحوت فى الماء، والطائر فى الهواء. وكان الشيخ أمين الدين جبريل حاضرًا فقال للشيخ أبى الحسن: فأنت إذًا القطب، فأنت إذًا القطب. فقال الشيخ

(٢) أى أنه ليس علم كتب ولا دراسة، وإنما هو إلهامات وتجلّيات من الحق سبحانه فى جانب المعرفة، والله سبحانه وتعالى يقول عن عبد من عباده: ﴿وعلّمناه من لدنا علمًا﴾.

(٣) ورد فى السُّنة المطهرة أحاديث صحيحة وحسنة عن الأبدال نذكر منها قوله ﷺ: «الأبدال فى هذه الأمة ثلاثون رجلاً، قلوبهم على قلب إبراهيم خليل الرحمن كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً» رواه الإمام أحمد: «الأبدال فى أمّتى ثلاثون، بهم تقوم الأرض، وبهم تمطرون، وبهم تنصرون» رواه الإمام أحمد.

«الأبدل فى أهل الشام، وبهم ينصرون، وبهم يرزقون» رواه الطبرانى عن عوف بن مالك. ورمز له السيوطى بالحسن.

أبو الحسن: أنا عبدالله، أنا عبدالله.

وأخبرنى بعض أصحابنا قال: قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى: والله ما وَلَّى اللّهُ وليًّا إلاّ وضع حبّه فى قلبى قبل أن يولّيه، ولا رفض عبدًا إلاّ وألقى بغضه فى قلبى قبل أن يرفضه.

وأخبرنى بعض أصحابنا قال: لما رجع الشيخ أبو الحسن من الحج أتى إلى الشيخ الإمام عزّ الدين بن عبد السلام قبل أن يأتى منزله فقال له: الرسول ﷺ يسلم عليك. قال: فاستصغر الشيخ عز الدين نفسه أن يكون أهلاً لذلك، قال: فدعا الشيخ عز الدين إلى خانقات الصوفية بالقاهرة وحضر معه محيى الدين بن سراقة وأبو العلم ياسين أحد أصحاب الشيخ العارف بالله محيى الدين بن عربى، فقال الشيخ محيى الدين بن سراقة للشيخ عز الدين: ليهنكم ما سمعنا يا سيدى، والله إن هذا لشىء يفرح به أن يكون فى هذا الزمان من يسلم عليه رسول الله ﷺ، فقال الشيخ عز الدين: الله يسترنا. فقال الشيخ أبو العلم ياسين: اللهم افضحنا حتى يتبيّن المحقّ من المبطل. ثم أشاروا للقوّال أن يقول وهو من البعد بحيث لا يسمع ما دار بينهم فكان أول ما قال:

صدق المحدّث والحديث كما جرى وحديث أهل الحق ما لا يفترى

فقام الشيخ عز الدين وطاب وقته وقام الجميع لقيامه.

وأخبرنى الفقيه مكين الدين الأسمر رضى الله عنه قال: سمعت مخاطبة الحق فقلت له: يا سيدى كيف كان ذلك؟ فقال: كان فى الإسكندرية بعض الصالحين صحب الشيخ أبا الحسن ثم كثر عليه ما سمعه منه من العلوم الجليلة والمخرقات فلم يسع ذلك عقله، فانقطع عن الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه، فإذا ليلة من الليالى وأنا أسمع أن فلانًا دعانا فى هذا الوقت بستّ دعوات فإن أراد أن يستجاب له فليوال الشيخ أبا الحسن الشاذلى دعانا بكذا دعانا بكذا حتى عيّنت لى الستّ دعوات، قال: ثم انفصل الخطاب عنى، فنظرت إلى المتوسط فى ذلك الوقت فعرفت الوقت الذى كان ذلك الرجل دعا فيه، ثم أصبحت فذهبت إلى ذلك الرجل فقلت له: دعوت الله البارحة بست دعوات دعوته بكذا، دعوته بكذا، إلى أن عددت له الست دعوات فقال: نعم. فقلت له: أتريد أن يستجاب لك؟ قال: ومن لى بذلك؟ فقلت له: قيل لى: إن أراد أن يستجاب له فليوال الشيخ أبا الحسن الشاذلى.

وسمعت شيخنا أبا العباس يقول. كان الشيخ قد قال لى:

إن أردت أن تكون من أصحابى فلا تسأل من أحد شيئًا، فمكثت على ذلك سنة ثم قال لى:

إن أردت أن تكون من أصحابى فلا تقبل من أحد شيئًا، فكان إذا اشتدّ الوقت علىّ أخرج إلى ساحل بحر الإسكندرية ألتقط ما يرميه البحر بالساحل من القمح حين يرفع من المراكب، فأنا يومًا على ذلك وإذا عبد القادر النقاد - وكان من أولياء الله - يفعل كفعلى، فقال لى:

أطلعت البارحة على مقام الشيخ أبى الحسن.

فقلت له: وأين مقام الشيخ؟

فقال: عند العرش.

فقلت له: ذاك مقام تنزل لك الشيخ فيه حتى رأيته.

ثم دخلت أنا وهو على الشيخ، فلما استقر بنا المجلس قال الشيخ رضى الله عنه:

رأيت البارحة عبد القادر النقاد فى المنام فقال لى:

أعرشى أنت أم كرسى؟

فقلت له:

دع عنك ذا.

الطينة أرضية.

والنفس سماوية.

والقلب عرشى.

والروح كرسى.

والسرّ مع الله بلا أين.

والأمر يتنزل فيما بين ذلك ويتلوه الشاهد منه.

وقدم بعض الدّالّين على الله إلى الإسكندرية فقال الشيخ مكين الدين الأسمر: هذا الرجل يدعو الناس إلى باب الله وكان الشيخ أبو الحسن يدخلهم على الله.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: كنت مع الشيخ أبى الحسن بالقيروان.

وكان شهر رمضان.

وكانت ليلة جمعة.

وكانت ليلة سبع وعشرين.

فذهب الشيخ إلى الجامع وذهبت معه.

فلما دخل الجامع، وأحرم، رأيت الأولياء يتساقطون عليه كما يتساقط الذباب على العسل، فلما أصبحنا وخرجنا من الجامع قال الشيخ:

ما كانت البارحة إلّا ليلة عظيمة، وكانت ليلة القدر، ورأيت الرسول ﷺ وهو يقول:

يا علىّ طهر ثيابك من الدنس، تحظ بمدد الله فى كل نفس.

قلت: يا رسول الله: وما ثيابى؟

قال: اعلم أن الله قد خلع عليك خمس خلع:

خلعة المحبة.

وخلعة المعرفة.

وخلعة التوحيد.

وخلعة الإيمان.

وخلعة الإسلام.

فمن أحب الله هان عليه كل شىء.

ومن عرف الله صغر لديه كل شىء.

ومن وحد الله لم يشرك به شيئًا.

ومن آمن بالله أمن من كل شيء.
ومن أسلم لله ما يعصيه، وإن عصاه اعتذر إليه، وإن اعتذر إليه قبل عذره.
ففهمت حينئذ معنى قوله عزّ وجل: (وثيابك فطهّر).
وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه:

جلْت فى ملكوت الله فرأيت أبا مدين متعلقًا بساق العرش وهو رجل أشقر أزرق العينين، فقلت له: ما علومك وما مقامك؟ فقال: أما علومى فأحد وسبعون علمًا، وأما مقامى فرابع الخلفاء ورأس السبعة الأبدال، قلت له: فما تقول فى شيخى أبى الحسن الشاذلى؟ قال: زائد علىّ بأربعين علمًا، هو البحر الذى لا يحاط به.

وأخبرنى بعض أصحابنا قال: قيل للشيخ أبى الحسن: من هو شيخك يا سيدى؟ فقال:

كنت أنتسب إلى الشيخ عبد السلام بن مشيش، وأنا الآن لا أنتسبُ لأحد، بل أعوم فى عشرة أبحر: خمسة من الآدميين النبى ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ، وخمسة من الروحانيين جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والروح الأكبر.

وأخبرنى ولده سيدنا ومولانا الإمام العارف شهاب الدين أحمد قال: قال الشيخ عند موته: والله لقد جئت فى هذا الطريق بما لم يأت به أحد.

ومن الأمر المشهور أنه لما دفن بحميثرا وغسل من مائها كثر الماء بعد ذلك وعذب حتى صار يكفى الركب إذا نزل عليه ولم يكن قبل ذلك كذلك.

وكتب إلىّ الشيخ أبو عبد الله بن النعمان رضى الله عنه أبياتًا يوصينى فيها بالشيخ أبى العباس رضى الله عنه:

عطاء إله العرش فى الثغر أحمد سررت به فى الصحب فالله أحمد

ثم يقول فى الشيخ أبى العباس رضى الله عنه:

ووارث علم الشاذلى حقيقة وذلك قطب فاعلموه وأوحد
رأيت له بعد الممات عجائبا تدلّ على من كان للفتح يجحد

فالذى عنى الشيخ أبو عبد الله بقوله: «رأيت له بعد الممات عجائبا» أن الماء حلا فوق ما كان وكثر لما غسل منه.

وأخبرنى بعض أصحابنا قال: قال الشيخ: قيل لى:
ما على وجه الأرض مجلس فى الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام.
ولا على وجه الأرض مجلس فى علم الحديث أبهى من مجلس الشيخ زكى الدين عبد العظيم.
ولا على وجه الأرض مجلس فى علم الحقائق أبهى من مجلسك.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: لما نزلت بتونس حين أتيت من «مرسية» وأنا إذ ذاك شاب فسمعت بذكر الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه:

فقال لى رجل: تمضى بنا إليه؟

قلت: حتى أستخير الله، فنمت تلك الليلة، فرأيت كأنى أصعد إلى رأس جبل، فلما علوت فوقه رأيت هنالك رجلاً عليه برنس أخضر وهو جالس، وعن يمينه رجل، وعن يساره رجل، فنظرت إليه فقال لى:

عثرت على خليفة الزمان.

قال: فانتبهت، فلما كان بعد صلاة الصبح، أتانى الرجل الذى دعانى إلى زيارة الشيخ فسرت معه.

فلما دخلنا على الشيخ رأيته على الصفة التى رأيته فوق الجبل، قال: فدهشت، فقال لى:

عثرت على خليفة الزمان. ما اسمك؟

فذكرت له اسمى ونسبى.

فقال لى: رفعت إلى منذ عشرة أعوام.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: لما قدمنا من المغرب إلى الإسكندرية نزلنا عند عمود السوارى من ظاهرها، وكان وصولنا عند اصفرار الشمس، وكانت بنا فاقة وجوع شديد، فبعث لنا رجل من عدول الإسكندرية طعامًا، فلما قيل للشيخ عنه قال: لا يأكل أحد منه شيئًا، فبتنا على ما نحن عليه من الجوع، فلما كان عند الصبح صلّى بنا الشيخ وقال: مدّوا السماط وأحضروا ذلك الطعام. ففعلنا وتقدمنا فأكلنا، فقال الشيخ رضى الله عنه: رأيت فى المنام قائلاً يقول لى: أحلُّ الحلال ما لم يخطر لك على بال، ولا سألت فيه أحدًا من النساء والرجال.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: كنت ليلة من الليالى نائمًا بالإسكندرية وإذا قائل يقول: مكة والمدينة!

فلما أصبحت عزمت على السفر.

وكان الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه بالمقسم بالقاهرة، فسافرت إليه، فلما مثلت بين يديه قال لى:

مكة والمدينة.

فقلت: لأجل ذلك جئت يا سيدى.

قال: اجلس. فجلست، وإذا رجل داخل عليه وقال:

يا سيدى عزمت على الحج، وما معى شىء من الدنيا.

فقال لى الشيخ: أى شىء معك؟

قلت: عشرة دنانير.

قال: ادفعها لهذا الرجل. فدفعتها له.

فقال لى الشيخ: إذا كان غدًا أخرج إلى الساحل واشتر لى عشرين أردب قمح.

فأصبحت ونزلت إلى الساحل واشتريت عشرين أردبًا قمحًا وحملته إلى المخزن وأتيت إلى الشيخ فقال لى:

هذا القمح قيل لى أنه مسوس ما نأخذ منه شيئًا.

فبقيت متحيرًا لا أدرى كيف أصنع فبقيت ثلاثة أيام لا يطالبنى صاحب القمح بالثمن فلما كان اليوم الرابع وإذا رجل يطوف علىّ فلما رآنى قال:

أنت صاحب القمح؟

قلت: نعم.

قال: تأخذ فيه فائدة ألف درهم؟

قلت: نعم.

قال: فوزن لى ألف درهم فوضع الله البركة فيها فلو قلت إنى أنفق منها إلى اليوم لصدقت.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه:

سافرنا مع الشيخ رضى الله عنه فى السنة التى توفى فيها، فلما كنا عند أخميم قال لى الشيخ:

رأيت البارحة كأنى فى جلبة وأنا فى البحر، والرياح قد اختلفت، والأمواج قد تلاطمت، والمركب قد انفتح، وأشرفنا على الغرق، فأتيت إلى جانب المركب، وقلت: أيها البحر، إن كنت أمرت بالسمع والطاعة لى فالمنّة لله السميع العليم، وإن كنت أمرت بغير ذلك فالحكم لله العزيز الحكيم، فسمعت البحر يقول: الطاعة الطاعة.

فلما سافرنا، وتوفى الشيخ رضى الله عنه ودفنّاه بحميثرا من صحراء عيذاب وكنا فى جلبة، فلما صرنا فى وسط البحر، اختلفت الأمواج، وتلاطمت الرياح، وانفتح المركب وأشرفنا على الغرق، ونسيت كلام الشيخ، فلما اشتدّ الأمر ذكرت ذلك فأتيت إلى جانب المركب وقلت:

أيها البحر إن كنت أمرت بالسمع والطاعة لأولياء الله فالمنّة لله السميع العليم، ما قلت كما قال الشيخ بالسمع والطاعة لى، وإن كنت أمرت بغير ذلك فالحكم لله العزيز الحكيم، فسمعت البحر يقول: الطاعة الطاعة.

وسكن البحر وطاب السفر.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: كنت مع الشيخ فى بحر عيذاب وكنّا فى شدّة من الريح الأزيب[٤]، وكان المركب قد انفتح، فقال الشيخ: رأيت السماء قد فتحت ونزل منها ملكان، أحدهما يقول: موسى أعلم من الخضر، والآخر يقول: الخضر أعلم من موسى. ونزل ملك آخر وهو يقول: والله ما علم الخضر فى علم موسى إلّا كعلم الهدهد فى علم سليمان حين قال: ﴿أحطتُ بما لم تُحِط به﴾[٥]، ففهمت أن الله سلمنا فى سفرنا فإن موسى سخّر له البحر[٦].

(٤) الأزيب: الشديد. (٥) النمل: ٢٢.

(٦) حيث انفلق البحر معجزة وكرامةً لموسى ومن آمن معه حينما فرّوا هاربين من فرعون وقومه الذين تبعوهم. قال تعالى: ﴿فأتبعوهم مشرقين، فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنّا لمدركون قال: كلّا إنّ معىَ ربى سيهدين، فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كلُّ فِرق كالطَّوْد العظيم..﴾ (الشعراء: ٦٠ - ٦٣).

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: قال رجل للشيخ: ما تقول فى الخضر أحى هو أم ميت؟ فقال الشيخ رضى الله عنه: اذهب إلى الفقيه ناصر الدين بن الأبيارى فإنه يفتى أنه حىّ وأنه نبى والشيخ عبد المعطى لقيه. وسكت ساعة، وقال: أنا لقيته وسبابته ووسطاه سواء.

وأعلم أن بقاء الخضر قد أجمع عليه هذه الطائفة وتواتر عن أولياء كل عصر لقاؤه والأخذ عنه واشتهر ذلك إلى أن بلغ الأمر إلى حدّ التواتر الذى لا يمكن جحده، والحكايات فى ذلك كثيرة.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: لقيت الخضر فى صحراء عيذاب فقال لى: يا أبا الحسن أصحبك الله اللطف الجميل، وكان لك صاحبًا فى المقام والرحيل.

وذكر الشيخ محيى الدين بن عربى رضى الله عنه أن أبا السعود بن الشبل كان يومًا فى مدرسة الشيخ عبد القادر الكيلانى رضى الله عنه يكنس فيها، فوقف الخضر على رأسه وقال: السلام عليكم. فرفع أبو السعود رأسه وقال: وعليكم السلام. ثم عاد إلى شغله بما هو فيه، فقال له الخضر: ما بالك لم تهتبل بى كأنك لم تعرفنى فقال أبو السعود: بلى قد عرفتك، أنت الخضر. فقال له الخضر: فما بالك لم تهتبل[٧] بى؟ قال: فقال له أبو السعود - والتفت إلىّ: الشيخ عبد القادر الكيلانى لم يترك فى هذا الشيخ فضلة لغيره.

وقال الشيخ محيى الدين بن عربى رضى الله عنه مخبرًا عن نفسه كنت أنا وصاحب لى بالمغرب الأقصى بساحل البحر المحيط وهناك مسجد يأوى إليه الأبدال، فرأيت أنا وصاحبى رجلًا قد وضع حصيرًا فى الهواء على مقدار أربعة أذرع من الأرض وصلى عليها فجئت أنا وصاحبى ووقفت تحته وقلت:

شغل المحب عن الحبيب بسره ... فى حب من خلق الهواء وسخّره
العارفون عقولهم معقولة ... عن كل كون ترتضيه مطهّره
فهم لديه مكرمون وعنده ... أسرارهم محفوظة ومحرّره[٨]

قال: فأوجز فى صلاته وقال: إنما فعلت هذا لهذا المنكِر الذى معك وأنا أبو العباس الخضر، ولم أكن أعلم أن صاحبى ينكر كرامات الأولياء فالتفتُّ إلى صاحبى وقلت: يا فلان أكنت تنكر كرامات الأولياء؟ قال: نعم. قلت: فما تقول الآن؟

قال: فما بعد العيان ما يقال، وقال الشيخ عبد المعطى الإسكندرانى لتلميذه عند موته: خذ هذه الجّبة فطال ما عانقت فيها الخضر.

وقالت زوجة القرشى رضى الله عنه: خرجت من عند الشيخ ولم أترك عنده أحدًا فسمعت عنده رجلًا يكلّمه، فوقفت حتى انقطع كلامه ثم دخلت فقلت: يا سيدى! خرجت وما كان عندك

---

(٧) يعنى: لم لم تهتم بى وتغتنم فرصة وجودى.

(٨) معنى كلام ابن عربى رضى الله عنه: أن العارف لا يهتم بخوارق العادات، فإنها فى الكون ومن الكون. واهتمام العارف كل اهتمامه - أن يكون سرّه مع الله وسعادته - كل سعادته - أن يكون مع المكون، وكأن ابن عربى بشعره هذا ينتقد هذا الذى يرتفع فى الهواء، ولكن هذا الذى يرتفع فى الهواء لم يكن يفعل ذلك لهوًى فى نفسه؛ ولذلك علّل فعله تعليلًا أرضى ابن عربى.

أحد والآن سمعت كلامًا عندك. فقال الشيخ: الخضر أتانى بزيتونة من أرض نجد فقال لى: كل هذه الزيتونة ففيها شفاؤك.

فقلت له: اذهب أنت وزيتونتك لا حاجة لى بها.

وكان الشيخ به داء الجذام.

وقد جاء أنه لما توفى رسول الله ﷺ سمعوا قائلًا يقول من جوف البيت، يسمعون صوته ولا يرون شخصه: إن فى الله خلفًا من كل هالك، وعوضًا من كل فائت، وإن المصاب من حرم الثواب. قال الراوى. كانوا يرَوْن أنه الخضر(٩).

واعلم رحمك الله أن من أنكر وجود الخضر فقد غلط.

أو من قال إنه غير خضر موسى.

أو من قال لكل زمان خضر وأن الخضرية رتبة يقوم بها رجل فى كل زمان.

والمنكر لوجود الخضر معترف على نفسه بأن منّة الله بلقاء الخضر لم تواجهه وليته إذ فاته الوصول إليها لا يفوته الإيمان بها.

ولا تغتر بما عساك أن تقف عليه من كلام أبى الفرج بن الجوزى فى كتاب سماه: «عجالة المنتظر فى شرح حال الخضر» أنكر فيه وجود الخضر وقال؛ من قال إنه موجود فإنما ذلك لهواجس ووساوس وهوس قام به واستدلّ على عدم وجوده بقوله سبحانه:

﴿وما جعلنا لبشرٍ من قبلِكَ الخلد﴾(١٠).

فعجب لهذا الرجل كيف استدلّ بهذه الآية ولا دليل فيها؛ لأن الخلد هو بقاء لا موت بعده، وليس هو المدّعَى فى الخضر، إنما المدعى فى الخضر طول إقامة يكون الموت بعدها.

فاعجبوا رحمكم الله لرجل يصدّق بطول بقاء إبليس وينكر طول بقاء الخضر.

---

(٩) قال الحافظ البيهقى: أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفقيه، حدثنا شافع بن محمد، حدثنا أبو جعفر بن سلامة الطحاوى، حدثنا المزّى، حدثنا الشافعى، عن القاسم بن عبد الله بن عمر بن حفص عن جعفر بن محمد عن أبيه - الحديث بطوله - وفيه:

فلما توفى النبى ﷺ وجاءت التعزية سمعوا صوتًا من ناحية البيت: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، إن فى الله عزاءً من كل مصيبة، وخلفًا من كل هالك، ودركًا من كل فائت، فبالله ثقوا، وإياه فارجوا، فإنما المصاب من حرم الثواب، فقال على رضى الله عنه: أتدرون من هذا؟ هذا الخضر عليه السلام.

وهذا الحديث مرسل وفى إسناده ضعف بحال القاسم العمرى هذا، فإنه قد ضعفه غير واحد من الأئمة، وتركه بالكلّية آخرون. ورواه الربيع عن الشافعى عن القاسم عن جعفر عن أبيه عن جده، وفى الإسناد العمرى المذكور.

وروى البيهقى عن الحاكم عن أبى جعفر البغدادى حدثنا عبد الله بن الحارث أو عبد الرحمن بن المرتعد الصغانى، حدثنا أبو الوليد المخزومى، حدثنا أنس بن عياض عن جعفر بن محمد عن جابر بن عبد الله قال: لما توفى رسول الله ﷺ ناداهم منادٍ يسمعون الحسّ ولا يرون الشخص فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته. إن فى الله عزاءً من كل مصيبة، وخلفًا من كل فائت، ودركًا من كل هالك، فبالله فثقوا، وإياه فارجوا، فإنما المحروم من حرم الثواب، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. ثم قال البيهقى: هذان الإسنادان وإن كانا ضعيفين فأحدهما يتأكد بالآخر، ويدلّ على أن له أصلًا من حديث جعفر.. والله أعلم. (سيرة ابن كثير)

(١٠) الأنبياء: ٣٤.

وما يروونه عن رسول الله ﷺ: لو كان الخضر حيًّا لزارنى فلم يثبته أهل الحديث.

فإن قالوا: لو كان ذلك لنقل.

فاعلم أنه ليس كل شيء أطلع الله عليه رسوله ﷺ يلزمه الإعلام به.

كيف، وقد روى عنه ﷺ أنه قال: علّمنى ربى ثلاثة علوم: علم أمرنى بإفشائه، وعلم نهانى عن إفشائه، وعلم خيّرنى فى إفشائه.

وقال بعض عارفين: إن الله سبحانه أطلع الخضر على أرواح الأولياء فسأل ربه أن يبقيه فى دائرة الشهادة حتى يراهم شهادةً كما رآهم غيبًا.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: كنت مع الشيخ فى سفر ونحن قاصدون إلى الإسكندرية حين مجيئنا من المغرب، فأخذنى ضبق شديد حتى ضعفت عن حمله، فأتيت إلى الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه فلما أحسّ بى قال: أحمد قلت: نعم يا سيدى قال: آدم خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته، وأسكنه الجنة نصف يوم خمسمائة عام[١١] ثم نزل به إلى الأرض، والله ما نزل الله بآدم إلى الأرض لينقصه، ولكن نزل به إلى الأرض ليكمله، ولقد أنزله إلى الأرض من قبل أن يخلقه بقوله: ﴿إنّى جاعلٌ فى الأرض خليفةً﴾[١٢] ما قال فى الجنة ولا فى السماء فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة لا نزول إهانة فإنه كان يعبد الله فى الجنة بالتعريف، فأنزله إلى الأرض ليعبده بالتكليف، فلما توفرت فيه العبوديتان استحق أن يكون خليفة، وأنت أيضًا لك قسط من آدم: كانت بدايتك فى سماء الروح فى جنة المعارف فأنزلت إلى الأرض النفس لتعبده بالتكليف، فلما توفرت فيك العبوديتان استحققت أن تكون خليفة.

وأخبرنى بعض أصحاب الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه قال: قال الشيخ ليلة: اجتمع بى الشريف البونى، وشرف الدين بن المجلى وأخبرانى أنهما دخلا على امرأة بغربى الإسكندرية، قالا: فقالت لنا: أريانى أيديكما فشمّت أيدينا، وقالت: أخوان صالحان، ثم قالت: انتهيت فى المعرفة إلى مقام الحيرة. فقلت: إلهى بم يخرج العارفون من الحيرة؟ فقيل لى: بالتوحيد، فهل فيكم من يعرف هذا التوحيد الذى يخرج به العارفون من الحيرة؟ قالا: فقلنا لها: إنما جئنا لنلتمس بركتك. قال: ثم قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: ألا دلّوها على من ضيّق عليه، ألا دلّوها على من ضُيق عليه؟ ثم توجه إلى جهتها وقال: التوحيد الذى يخرج به العارفون من الحيرة لا إله إلاّ هو، يخرج العارفون من الحيرة بلا إله إلاّ هو، فأصبح بعض أصحاب الشيخ فذهب إليها فوجدها وهى تقول: استغنيت استغنيت، فعلمنا أن الشيخ أمدّها فى تلك الساعة.

وأخبرنى بعض أصحاب الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه قال: دخل علَى الشيخ أبى الحسن عبدُ القادر النقاد فقال له الشيخ: يا عبد القادر أيعصى الولىّ؟ فقال عبد القادر: أى والله الذى لا إله إلاّ هو وهو يطالع عين الحقيقة. فقال الشيخ أبو الحسن: أشهد أنك ولىّ الله.

---

(١١) يقول الله تعالى: ﴿وإنّ يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾.

(١٢) البقرة: ٣٠.

وقال الشيخ أبو الحسن: كنت فى بعض سياحاتى قد أويت إلى مغارة بالمغرب من مدينة للمسلمين فمكثت ثلاثة أيام لم أذق طعامًا فبعد الثلاثة الأيام دخل علىّ ناسٌ من الروم كانت قد أرست سفينتهم هناك فلما رأونى قالوا: قسيس من المسلمين. ووضعوا عندى طعامًا وإدامًا كثيرًا، فعجبت كيف رُزقت على أيدى الكافرين ومُنعت ذلك من المسلمين، فإذا قائل يقول لى: ليس الرجل من نصر بأحيائه إنما الرجل من نصر بأعدائه.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: نمت ليلةً فى سياحتى على راية من الأرض فجاءت السباع فطافت بى وأقامت إلى الصباح، فما وجدت أنسًا كأنس وجدته فى تلك الليلة فلما أصبحت خطر لى أنه قد حصل لى من مقام الأنس بالله شىء، فهبطت واديًا، وكان هنالك طيور حَجَل لم أرها، فلما أحسّت بى طارت بمرة فخفق قلبى رعبًا فإذا قائل يقول لى: أيا من كان البارحة يأنس بالسباع، مالك توجل من خفقان الحجل[١٣]، ولكنك البارحة بنا والآن أنت بنفسك.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: قلت يوما وأنا فى مغارة فى سياحتى:

إلٰهى متى أكون لك عبدًا شكورًا، ؟ فإذا قائل يقول لى:

إذا لم تر منعما عليه غيرك.

فقلت: إلٰهى كيف لا أرى منعمًا عليه غيرى وقد أنعمت على الأنبياء، قد أنعمت على العلماء، وقد أنعمت على الملوك؟ فإذا قائل يقول لى:

لولا الأنبياء لما اهتديت.

ولولا العلماء لما اقتديت.

ولولا الملوك لما أمنت، فالكل نعمة منى عليك.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: جعت مرة ثمانين يوما فخطر لى أن قد حصل لى من هذا الأمر شىء، وإذا بامرأة خارجة من مغارة ووجهها كأنه الشمس حسنا وهى تقول منحوس منحوس، جاع ثمانين يوما فأخذ يدل على الله بعمله، وها أنا لى ستة أشهر لم أذق طعاما.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: كنت فى سياحتى فى مبدأ أمرى حصل لى تردد: هل ألزم البرارى والقفار للتفرغ للطاعة والأذكار، أو أرجع إلى المدائن والديار لصحبة العلماء والأخيار؟ فوصف لى ولى هناك، وكان برأس جبل فصعدت إليه، فما وصلت إليه إلا ليلا، فقلت فى نفسى: لا أدخل عليه فى هذا الوقت. فسمعته يقول من داخل المغارة: اللهم إن قوما سألوك أن تسخر لهم خلقك فسخرت لهم خلقك، فرضوا منك بذلك، اللهم وإنى أسألك اعوجاج الخلق على حتى لا يكون ملجئى إلا إليك. قال: فالتفت إلى نفسى وقلت: يا نفس انظرى من أى بحر يغترف هذا الشيخ، فلما أصبحت دخلت إليه فأرعبت من هيبته.

فقلت له:

يا سيدى كيف حالك؟

---

(١٣) الحجل: بفتحتين: إناث اليعاقيب، واليعاقيب ذكورها.

فقال: أشكو إلى الله من برد الرضا والتسليم كما تشكو أنت من حر التدبير والاختيار.

فقلت؛ يا سيدى أما شكواى من حر التدبير والاختيار فقد ذقته وأنا الآن فيه، وأما شكواك من برد الرضا والتسليم فلماذا؟

فقال: أخاف أن تشغلنى حلاوتها عن الله.

قلت: ياسيدى سمعتك البارحة تقول: اللهم إن قوما سألوك أن تسخر لهم خلقك، فسخرت لهم خلقك، فرضوا منك بذلك، اللهم وإنى أسألك اعوجاج الخلق على حتى لا يكون ملجئى إلا إليك، فتبسم ثم قال:

يا بنى، عوض ما تقول: سخر لى خلقك، قل: يارب كن لى، أترى إذا كان لك أيفوتك شىء؟ فما هذه الجناية.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: كنت أنا وصاحب لى قد أوينا إلى مغارة نطلب الوصول إلى الله فكنا نقول غدا يفتح لنا، بعد غد يفتح لنا، فدخل علينا رجل له هيبة فقلنا له: من أنت؟ فقال: أنا عبد الملك، فعلمنا أنه من أولياء الله، فقلنا له: كيف حالك؟ فقال: كيف حال من يقول غدا يفتح لى بعد غد يفتح لى؟ فلا ولاية ولا فلاح، يا نفس، لم لا تعبدين الله؟ قال فتفطنا من أين دخل علينا فتبنا إلى الله واستغفرنا ففتح لنا.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: كنت يوما بين يدى الأستاذ فقلت فى نفسى: ليت شعرى هل يعلم الشيخ اسم الله الأعظم؟ فقال ولد الشيخ وهو فى آخر المكان الذى أنا فيه: يا أبا الحسن ليس الشأن من يعلم الاسم الأعظم، إنما الشأن من يكون هو عين الاسم، فقال الشيخ من صدر المكان: أصاب وتفرس فيك ولدى.

وقيل للشيخ أبى الحسن رضى الله عنه: لم لا تسمع السماع؟ فقال: السماع من الخلق جفاء.

وأخبرنى بعض أصحابنا قال: استشفع طالب بالشيخ أبى الحسن إلى القاضى تاج الدين بن بنت الأعز أن يزاد على مُرتبه عشرة دراهم، فذهب الشيخ إليه، فأكبر القاضى تاج الدين مجىء الشيخ وقال ياسيدى فيم جئت؟

قال: من أجل فلان الطالب لنزيده فى مرتبة عشرة دراهم.

قال: فقال له القاضى تاج الدين؛ يا سيدى هذا له فى المكان الفلانى كذا، وله فى المكان الفلانى كذا، وفى موضع كذا وكذا.

قال: فقال له الشيخ أبو الحسن: يا تاج الدين، لا تستكثر على مؤمن عشرة دراهم تزيده إياها فإن الله لم يقنع بالجنة للمؤمن جزاء حتى زاده النظر إلى وجهه الكريم فيها.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه سمعت الحديث الوارد عن رسول الله ﷺ: «إنه ليغان على قلبى فأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة»(١٤).

---

(١٤) أخرجه مسلم وأبو داود.

فأشكل على معناه، فرأيت رسول الله ﷺ وهو يقول لى: يا مبارك ذاك غين الأنوار لا غين الأغيار.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: سمعت الحديث المروى عن رسول الله ﷺ: «من سكن خوف الفقر قلبه قل ما يرفع[١٥] له عمل»، فمكثت سنة أظن أنه لا يرفع لى عمل أقول: ومن يسلم من هذا؟ فرأيت رسول الله ﷺ فى المنام وهو يقول لى: «يا مبارك أهلكت نفسك، فرق بين خطر وسكن».

وقال رضى الله عنه: رأيت الصديق فى المنام فقال لى: أتدرى ما علامة خروج حب الدنيا من القلب؟ قال: قلت: لا أدرى. قال: علامة خروج حب الدنيا من القلب بذلها عند الوجد ووجود الراحة منها عند الفقد.

وقال رضى الله عنه: استنار قلبى يوما فكنت أشهد ملكوت السموات السبع والأرضين السبع، فوقعت منى هفوة فحجبت عن شهود ذلك، فتعجبت كيف حجبنى هذا الأمر الصغير عن هذا الأمر الكبير، فإذا قائل يقول لى: البصيرة كالبصر أدنى شىء يحل فيها يعطل النظر.

ولنقبض عنان المقال لئلا نخرج عن غرض الكتاب، وإلا فكلام الشيخ رضى الله عنه أشهر من أن ننبه عليه، وأكثر ما ذكرته هنا لا يوجد فى الكلام المنسوب إليه، وقد مضى من كلامه فى المقدمة، وسيأتى فى أثناء الكتاب إن الله[١٦]، وحسبك من كلامه ما ذكره من كرامات القطب، وما ذكره من طريق الخصوص والعموم، والعلوم والحقائق والأسرار، وحلاوة اللفظ ووجازته، مع الاشتمال على المعانى الكثيرة، والهيبة التى تجدها عند ذكرك كلامه أو سماعك إياه، قل أن نجد ذلك فى شىء من كلام أهل الطريق.

أما ما قال فى كرامات القطب فقال رضى الله عنه: للقطب خمس عشرة كرامةفمن ادعاها أو شيئا منها فليبرز بمدد الرحمة والعصمة والخلافة والنيابة ومدد حملة العرش العظيم، ويكشف له عن حقيقة الذات وإحاطة الصفات، ويكرم بكرامة الحكم والفصل بين الوجودين، وانفصال الأول عن الأول، وما انفصل عنه إلى منتهاه، ومن ثبت فيه، وحكم ما قبل وما بعد، وحكم من لا قبل له ولا بعد، وعلم البدء وهو العلم المحيط بكل علم ولكل معلوم بدءا من السر الأول إلى منتهاه ثم يعود إليه. فهذا معيار أعطاه الله الشيخ يختبر به من ادعى هذه الرتبة العظيمة القائمة بكفالة الأسرار، والمحيطة بمدد الأنوار.

وهذا نحو ما ذكره العارف بالله أبو عبد الله الترمذى الحكيم فى كتاب ختم الأولياء له: إن من ادعى الولاية فيقال له: صف لنا منازل الأولياء فذكر مسائل معيارا على من ادعى الولاية[١٧].

---

(١٥) ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد ضمن الرزق وأقسم على ذلك فقال تعالى: ﴿وفى السماء رزقكم وما توعدون، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾.

(١٦) انظر سيرة الإمام الشاذلى - رضى الله عنه - بالتفصيل فى كتابنا الذى كتبناه عنه - نشر دار الكتب الحديثة.

(١٧) كتاب «ختم الأولياء» للحكيم الترمذى، وهو من الكتب التى أثارت اهتمام الكثيرين فى عالم الفكر الإسلامى، واهتم به اهتماما كثيرا الإمام محيى الدين بن عربى وتحدث عنه أكثر من مرة - وقد طبع هذا الكتاب حديثا فى بيروت.

ولقد أخبرنى الشيخ مكين الدين الأسمر قال: مكثت أربعين سنة يشكل على الأمر فى طريق القوم، فلا أجد من يتكلم عليه ويزيل عنى إشكاله، حتى ورد الشيخ أبو الحسن فأزال كل شيء أشكل على.

ولما قدم الشيخ صدر الدين القونوى إلى ديار مصر رسولا اجتمع بالشيخ أبى الحسن، وتكلم بحضرته بعلوم كثيرة، والشيخ مطرق إلى أن استوفى الشيخ صدر الدين كلامه، فرفع الشيخ أبو الحسن رأسه وقال: أخبرونى أين قطب الزمان اليوم، ومن هو صديقه وما علومه؟

قال: فسكت الشيخ صدر الدين ولم يرد جوابا.

وطريقه رضى الله عنه طريق الغنى الأكبر، والتوصيل العظيم، حتى أنه كان يقول: ليس الشيخ من دلك على تعبك، إنما الشيخ من دلك على راحتك.

ونشأ على يده رضى الله عنه رجال.

منهم من أقام بالمغرب كأبى الحسن الصقلى وكان من أكابر الصديقين، وعبد الله الجبيبى وكان من أكابر أولياء الله.

ومنهم من أتى معه وهاجر إلى ديار مصر منهم سيدنا ومولانا حجة الصوفية علم أهل الخصوصية شهاب الدين أحمد بن عمر الأنصارى المرسى رضى الله عنه.

ومنهم الحاج محمد القرطبى وأبو الحسن البجاوى وأبو عبد الله البجائى والوجهانى والخراز.

ومنهم من صحبه بديار مصر منهم الشيخ مكين الدين الأسمر والشيخ عبد الحكيم، والشيخ الشريف البونى، والشيخ عبد الله اللقانى، والشيخ عثمان البورنجى، والشيخ أمين الدين جبريل.

ولكل من هؤلاء علوم وأسرار وإشارات وأصحاب أخذوا عنهم، تركنا تتبع كراماتهم وخصوصياتهم، لئلا نخرج عن غرض الكتاب.

وطريقته رضى الله عنه تنتسب إلى الشيخ عبد السلام بن مشيش، والشيخ عبد السلام ينتسب إلى الشيخ عبد الرحمن المدنى، ثم واحد عن واحد إلى الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: طريقتنا هذه لا تنسب للمشارقة ولا للمغاربة، بل واحد عن واحد إلى الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو أول الأقطاب.

وإنما يلزم تعيين المشايخ الذين تستند إليهم طريق الإنسان من كانت طريقته يلبس الخرقة فإنها رواية، والرواية يتعين تعيين رجال سندها، وهذه هداية، وقد يجذب الله العبد إليه فلا يجعل عليه منة لأستاذ(١٨)، وقد يجمع شمله برسول الله ﷺ فيكون آخذا عنه، وكفى بهذا منة.

ولقد قال لى الشيخ مكين الدين الأسمر رضى الله عنه: أنا ما ربانى إلا رسول الله ﷺ وذكر عن الشيخ عبد الرحمن القناوى رضى الله عنه أنه كان يقول: أنا لامنة لأحد على إلا لرسول الله ﷺ، وإذا أراد الله أن يتفضل على عبد يغنيه عن الأستاذ حتى لا يكون له فيه سلف.

---

(١٨) يقول تعالى: ﴿الله يجتبى إليه من يشاء﴾.

وقال ملك لبعض جلسائه: إنى أريد أن أجعلك وزيرا قال: ليس لى فى هذا سلف. قال: إنى أريد أن أجعلك سلفا لمن بعدك.

ولنقتصر على هذا القدر فإنه كاف فى التعريف بقدر الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه.

وما الأمر إلا كما قال القائل:

وقد وجدت مكان القول ذا سعة ... فإن وجدت لسانا قائلا فقل

وبدأنا بذكر الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه وإن كان غرضنا فى وضع هذا الكتاب ذكر مناقب شيخنا أبى العباس رضى الله عنه، لكن فعلنا ذلك لأمرين:

أحدهما أن ذلك تعريف بقدر الشيخ أبى العباس رضى الله عنه، لأن شرف التابع بشرف المتبوع.

ولأن الشيخ رضى الله عنه هكذا كان شأنه: ذكر الشيخ رضى الله عنه والدلالة عليه والإعراض عن ذكر خصائصه هو فى نفسه، حتى قال له إنسان: يا سيدى، نراك تقول: قال الشيخ: وقلَّ أن تسند لنفسك شيئًا، فقال له الشيخ: لو أردت على عدد الأنفاس أن أقول قال الله قلت: قال الله، ولو أردت على عدد الأنفاس أن أقول قال رسول الله قلت: قال رسول الله ﷺ، ولو شئت على عدد الأنفاس أن أقول: قلت أنا، قلت أنا، ولكن أقول: قال الشيخ واترك ذكر نفسى أدبًا معه.

وقد تم الكلام فى الباب الأول والحمد لله رب العالمين.